في قلب المعركة

بقلم
الاستاذ محمود الحبيب

كان الركب يعلو متن الكثبان ، ويهبط بطون الأودية والليل يلفه بظلامه الممتد على اطراف الصحراء، ولا تجد النسوة الكريمات من عقائل المصطفى (ص) إلا حلكة تتزايد ، ورياحاً تعوي فوق تلك الأباطح ولا يؤنسهن خلال ذلك الا البصيص الخافت الذي يترافص في قبة السماء ، متحاملا على نفسه طول تلك الآماد الفسيحة الفاصلة بين النجوم وهذه الأرض ، فيجدن في ذلك الضوء عزاء يبدد وحشة الليل وفزعه في نفوس الأطفال اللائذين بهن ، وهم يرتعدون فرقاً امام اشباح الصحراء وعويلها المنكر .

وكان هذا الركب لايعدو بضعة وسبعين شخصاً من الرجال والنساء والاطفال وعلى رأسهم الحسين بن علي « ع » وقد فارق الحجاز الى حاضرة العراق يتبوأ فيها كرسي الخلافة ، ويقمع صولة آل امية الذين ابتدعوها خطة هر قلية في قضية الخلافة ، متخذين في سبيل ذلك اعنف الطرق والمناهج دون ان يتقيدوا بالعرف والتقاليد والشريعة التي سنها محمد، وطبقها خلفاؤه من بعده .

ومع زفيف الريح وهي تثير الرمال في الوجوه بشدة كانت الخواطر تزدحم وتتثال في رأس الحسين ، فراح يفكر في خروجه هذا مع قلة العدد ، وفي ذلك السيل من الرسائل التي بعثها اليه شيعته ومحبوه من الكوفة يطلبون فيها اليه الخروج اليهم ، فهم جند ابيه ، وصفوة خلانه ، والمستميتون في سبيل مبايعته ، فلن يرتضوا يزيد العربيد خدين النساء وريب الراح خليفة يأتمر به المسلمون الذين قادهم عباقرة مصلحون قبله .

كان يفكر في امر سفيره « مسلم بن عقيل » الذي سبقه ليسبر غور اهالي الكوفة ، ويلم بالتيارات الفكرية التي يحسون بها ، و كيف انقطعت اخباره ، فلا يدري ماحل به فهل نجح في سفارته وغادر الحاضرة حيث اضحر الى الحجاز وحيداً فضل في متاهاتها الواسعة حيث وافته اكف المنون؟

ثم فكر في يزيد ورؤوسه المدبرة في العراق ، وهل سيخفى عليهم سر هذه الدعوة فيسكتون عنها ، أم تراهم يقمعون مكاتبيه ويئدون الحركه في مهدها ، ويتلقون مقدمه بجحفل لجب ، من الأعوان والأنصار ؟

انه مقبل على معركة رهيبة ، تتصاول فيها قوى الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة، والأيمان والفجور ، وسيشتري الرجال بالمال ، وتباع الذمم والمواعيد ، ولن يجد الثعلب الأموي اية صعوبة في تجنيد جيش من اشياعه يتفانون في سبيل الدفاع عنه، فهل يستطيع بدوره مواجهة الموقف الرهيب ، والزج بنفسه واولاده واتباعه وعقائله في اتون مستعر ، لابني مشعروه ان يقترفوا ابشع الآثام في سبيل اغراضهم ومنافعهم النفسية .

ولكن هل يستكين على الهوان ، ويمد يده بالبيعة كغيره ، وهو واحد ثلاثة كان مجرد ذكر اسمائهم يملأ (يزيد) فرقاً وهلعاً ، فوصية ابيه «معاوية» اليه قبيل انتقاله الى عدالة السماء ، لما تزل تدوي في اذنه ، وهو يذكره بدهاء ابن الزبير ، وشجاعة الحسين ، وقوة ابن ابي بكر .

كلا ، ان الحسين يعلم انه احق الناس بهذه الدولة المسلمة التي بعثها جده لتفتح العالم ، ولئن عصفت بالرؤوس الأطماع وتحركت بذور الفتنة في قلوب رجال كانوا من ابناء الحجاز ، فامتدت انظارهم الى نيل الخلافة ، وعافوا بيعة يزيد ، فانه الفرد العلم ذو الأرومة الكريمة ، والبيت السامق في دنيا العرب ، فمن ينكر اسمه، ومن ينكر عليه هذه الأحقية التي تشع عنها انوار الامامة والتقوى ، وتبرق على حدها الصلابة والعزة ؟ واين يزيد بمثالبه ونقائصه التي كرهها المسلمون منه ، من حفيد محمد حبيب القلوب ، وحامل لواء الدعوة الطيبة ؟ لعمري ما ان صافحت العيون هذين الأسمين الا وتهاوت كسفة وسمت اخرى ، فلا وجه للمقارنة مطلقاً ، فحسين شمس قد كسفت كل نجم .

وظل الركب يطوي الصحراء أياماً حتى وافاه النبأ